الثانية وهى التفقه ، أما الثالثة فهى ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ ، ومن تفقه لغير هذا ؛ليشار إليه بالبنان مثلا [1] ؛ نقول له : أنت من الذين قال الله فيهم :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾

ينقلنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى. ولنا أن نتساءل : لماذا - إذن - جاء الحديث عن النفرة والفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب : شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلُّم الفقه، وليعلِّم غيره ؛ هذا المسلم فى حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التى يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد فى سبيل الله.

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس فى آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر ، وطائفة منها تبقى مع رسول الله ﷺ . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تَتعَلَّم وتعلِّم [2] ، وتتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح

(١) البنان : الأصابع . مفردها بنانة . ومنه قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة] قال الفارسى : أى : نجعلها كخف البعير فلا ينتفع بها فى صناعة . نقله ابن منظور فى اللسان .

(٢) ففرقة التعليم والتعلم هى ما يعبر عنه حديثاً بالتوجيه المعنوى ، والتوجيه المعنوى أساس الانطلاق الإيمانى نحو ما يريده الله سبحانه لدعوته .

الملكات الإيمانية متساندة غير متعاندة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ وهذا يعنى أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين، وهناك قوم أبعد منهم، والحق قد قال :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... (٣٦) ﴾ [التوبة]

إذن : فهناك أولويات فى القتال ، وقتال الكفار القريبين منك فيه تأمين لمعسكر الإيمان ؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب ؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مؤونة للسفر البعيد ، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك ؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيناتهم . فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد ؛ فيتفق مع العدو القريب ، ويصنع الاثنان حولك «كماشة» بلغة الحرب ، فلا بد أن تحمى ظهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب.

إذن : فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب. ولا تَعارض بين قوله الحق : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله سبحانه : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ؛ لأن معنى ﴿كَافَّةً﴾ أى: جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية. فخذ القريب منك ؛ لتضمه إليك ، ومتى ضممته إليك نقصت أرضا من عدوك ، وأصبح زائداً فيك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده ؛ فأخذته ؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه.

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار : اعتبروا أيها الكفار ، فأنتم لا ترون الأرض كل يوم وهى تنقص من تحت أقدامكم [1] ، وما ينقص من

(١) قال عز وجل : ﴿ أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها .. (٤١) ﴾ [الرعد] . قال ابن عباس فى تفسيرها ، أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وهو الأولى فى تفسير هذه الآية ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٠).

أرض الكفار يزيد فى أرض الإيمان . وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجرأة تُجَرِّىء على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد فى مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته ، وأحسَّ منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا ينزع من قلبه الأمل فى الانتصار عليك ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة صفة ، ويقال: غِلْظَة ، وغُلْظَة ، وغَلْظَة [1] ، والمعروف أنها الشدة ، فحين تضرب عدوكَ اضربه بقوة ، وبجرأة، وبشجاعة.

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبلْ الضربة بتحمُّلٍ ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة فى حالتين اثنتين ؛ فى حالة الإرسال منك ، وفى حالة الاستقبال منه ، فلا يكفى أن تضرب عدوك ضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تَحملُ على عدوك ، وغلظة تتحمَّل من عدوك.

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيها الحق:

﴿اصْبِرُوا... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

ولكنْ هَبْ أن عدوكَ يصبر أيضاً ، فيأتى الأمر من الحق:

﴿وَصَابِرُوا ... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: حاول أن تغلبه فى الصبر . وحذَّر الحقُّ من إلقاء السلاح بعد انتهاء

(١) قال الفراء : لغة أهل الحجاز وبنى أسد « غِلظة » بكسر الغين . ولغة بنى تميم « غُلظة» بضم الغين. وقال الزجاج : فيها ثلاث لغات : غِلْظة ، وغُلْظَة ، وغَلْظة. انظر : لسان العرب مادة (غ ل ظ)

المعركة ؛ لأن العدو قد يستنيم [١] المؤمن؛ لذلك جاء الأمر من الحق:

﴿ وَرَابِطُوا... (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

أي: استقر أيها المؤمن فى الأرض ؛ ليعلم العدو أنك تنتظره إن حاول الكرّة من جديد أو حدَّثته نفسه بالقتال مرة أخرى . إذن: فالغلظة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمّل ، والتحمُّل يقتضى صبراً، والتحامل يقتضى شجاعة ، فإذا ما كان فى خصمك صبر وشجاعة ؛ فعليك أن تصابره أى : تصبر أكثر منه ، وهى مأخوذه فى الأصل من «نافس فلان فلانا . .أى سابقه وحاول أن يسبقه» ، والمنافسة من النفس ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين]

أى: تنافسوا فى الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شىء مرة أو مرتين فى اليوم ، وتحتاج إلى شىء آخر خمس أو ستّ مرات فى اليوم. وتحتاج إلى شىء ثالث دائماً . فأنت فى الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفى الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر. أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان.

وقلنا قديماً: إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعامَ إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التى فى جسمه ؛ لذلك لم يُملِّك الحق سبحانه الماء مثلما ملَّك

(١) يستنيم المؤمن : أى ينتهز منه نومة أو غفلة عن سلاحه . ويقول عز وجل : ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً... (١٠٢)﴾ [النساء] فالغفلة عن السلاح والمتاع أثناء القتال هى حلم للكافرين يتحينون به أى فرصة لحدوثها ليميلوا على المؤمنين ميلة واحدة ، فيأخذونهم مرة واحدة .

الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات ؛ ولذلك لم يملّك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمونين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمّى استنشاق الهواء وزفيره بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفْس وهى مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نَفَس الهواء الذى يضمن استمرار النفس فى الحياة .

وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشىء النفيس ، وهو إعلاء منهج الله . وحين تصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لحاجة [1] لمدة قصيرة ثم يتراجع ؛ لأن الباطل زهوق ، وهنا يقول سبحانه : ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى : غلظة تحمل بها على العدو ، وغلظة تتحمَّل من العدو ، وأن تصبر ، وتصابر ، وترابط .

وكيف يطلب الله منا أن تكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فإن هذا ينفى الغلظة ، وأقول : لنُفرق بين أمرين ، أمر الغلظة فى أن تكون الحجة قوية ، وأمر الغلظة التى يتطلبها القتال ، أما المعايشة والمآكلة والملاطفة ، فهذه تحتاج إلى لين ورقَّة .

وقوله الحق : ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة ، بل تعنى أنك إن تَطَلَّبَ الأمرُ فيجب أن تتوافر فيك ، وكذلك قلنا : إن الله

---

(١) أصل الرباط من مرابط الخيل التى تربط بها فى مواجهة الأعداء فى الثغور والحدود مع العدو ، ففيه معنى التربص به والحذر من غدره . ومما ورد فى فضل الرباط فى سبيل الله : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٢) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٩) والترمذى فى سننه (١٦٦٤) عن سهل بن سعد الساعدى ويستعمل الربط فى المعانى كقوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (١٤) ﴾ [الكهف] أى ثبتنا قلوبهم وعزائمهم على الإيمان . وهم فتية أهل الكهف .

لم يطبع المؤمن على الغلظة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على العزة ، بل قال:

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... (٢٩)﴾ [الفتح]

وقال:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤)﴾ [المائدة]

ويُنهى الحق الآية:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعُدَّتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان ؛ لتدخل المعركة ، وعندك شيء من الاطمئنان. ومثال هذا من يسلك مفاوز[1] أو صحارى مقفرة[2] أو طريقا موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قُطَّاع طريق، نجده يستعد بحمل سلاح ؛ فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا الحال مع العدد والعدة.

أما النصر فهو من المدد الربَّاني من الحق سبحانه وتعالى. وما دام الله مع المتقين ، ولله معيّة مع المتقين فلا بد أن يمدهم بمدده ؛ لذلك جاء الحق هنا بقوله: ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ لننتبه إلى أن الداخل في الحق هو من سيسلك سلوكاً غليظاً مع الأعداء ، وقد يسلك بالغلظة طمعاً في المغنم ، فيدخل على الكافر بالقسوة ، وقد يكون قلب هذا الكافر مستعداً للإيمان ، فيقول: أسلمت واستسلمت ، لكن من دخل عليه تعجبه مطية[3] هذا الكافر ، ويعتبرها مغنماً .

(١) المفاوز : جمع مفازة ، وهي الصحراء المهلكة ، وسميت هكذا ؛ لأن من دخلها وخرج منها وقطعها فاز . قال ابن شميل : المفازة التي لا ماء فيها.

(٢) مقفرة : خالية من الكلأ والناس .

(٣) المطية : البعير أو الناقة يمتطى ظهرها أي : تركب . والجمع مطايا .

لذلك يأتى التحذير فى قول الحق سبحانه : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن سلَّم لك و استسلم ؛ فاستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مغنم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هى العليا [1] وهنا تكون معيه الله لك ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾ .

إذن : فالغلظة لا تعنى أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة ؛ فلا بد أن يوجد فى طبعك اللين والموادعة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له فى الحرب شجاعة ، وفى السلم وداعة ، وخيركم من كان فى الجيش كمياً وفى البيت صبياً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء ؛ لأن ذلك وضع للطاقة فى غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾ [التوبة]

أى : كونوا فى حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف ؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن

(١) عن أبى موسى الأشعرى أن رجلاً أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله » وفى رواية « هى العليا فهو فى سبيل الله » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

استعملها لله ؛ لتضمن أن تكون في معية الله [1]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قوله الحق :﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ ﴾ يعني : إذا نزلت ، ونعلم أن هناك «نَزَل» و«أَنْزَلَ» و«نَزَّل» فـ « أَنزَلَ» للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ثم نزّله الحق نجوماً [2] . فالتنزيل معناه : موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل - عليه السلام - على سيدنا محمد ﷺ .

وقد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزول جبريل - عليه السلام - بالقرآن على رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

(١) عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الغزو غزوان ، فأما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الإمام ، وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإن نومه ونبهه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة ، وعصى الإمام وأفسد في الأرض ، فإنه لم يرجع بالكفاف » أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٤) وأبو داود في سننه (٢٥١٢) والنسائي في سننه (٦/ ٤٩) .

(٢) على حسب الحوادث .

وهنا يقول الحق : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ والسورة هى الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص ؛ أوله مثلاً : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وآخره تأتى بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ومأخوذة من السور الذى يحدد المكان[1] . وهل المقصود بقوله الحق هنا نزول سورة كاملة من القرآن أم نزول بعض من القرآن ؟ إن المقصود هو نزول بعض من القرآن .

وتتابع الآية : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ والمقصود بهذا المنافقون الذين رجعوا عن الإيمان . ونحن نعلم أن القرآن حق وأنه من عند الله ، وله أسر وفاعلية إشراقية فى صفاء النفس ، وقد سمعه الكفار من قبل ، وشهدوا له[2] ، أما المؤمنون فحين سمعوه فقد أسرهم .

وهذا الأمر بسبب الاستعداد لتلقيه ؛ لأن المسألة فى كل الأحداث ليست من الفاعل وحده ، ولكن من الفاعل والقابل للفعل - ولله المثل الأعلى - أنت تأتى بمطرقة مثلاً ، وتطرق قطعة حديد فترق وتزيد مساحتها ، أما إن طرقت بالمطرقة قطعة صلب أقوى من المطرقة ؛ فلن تؤثر فيها .

إذن : فالطرق شىء وقابلية الطرق شىء آخر ، وهكذا لا بد للفاعل من قابل ، والمطلوب من القابل للشىء أن يستقبله بغير خصومة له نابعة من قلبه . فإذا أراد أحد أن يسمع القرآن فعليه أن يخرج ما فى قلبه مما هو ضد

(١) فالسورة فى التعريف الاصطلاحى هى قرآن يشتمل على آى ذوات فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات ، وكل سورة معجزة وآية من آيات الله تعالى ، ومنها سور طوال ومنها قصار ، ومع هذا فسورة مثل سورة الكوثر وهى ثلاث آيات لها نفس إعجاز سورة البقرة . انظر تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٣ - ٢٦٥) .

(٢) من هؤلاء الوليد بن المغيرة الذى حاول معه الكفار أن يصف القرآن بأنه كهانة أو تخليط مجنون ، أو أنه شعر ، أو أنه قول ساحر . فقال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . سيرة النبى لابن هشام (١/ ٢٧٠) .

القرآن ، ويضع القرآن وضده خارج قلبه وليسمع هذا وهذا وما ينفذ إلى قلبه بعد هذا فليصدقه . لكن أن يستقبل القرآن بما فى قلبه من كراهية القرآن ؛ فلن يتأثر به ، مثلما قابل بعض المنافقين القرآن وقالوا: لم نتأثر به .

وسبب هذا أن هناك ما يسمى بالحيز ، وعدم التداخل فى الحيز ، فالقلب حيز لا يسع الشىء ونقيضه ، فلا تملأ قلبك ببغضك للدين ، ثم تقول : لقد سمعت القرآن ولم يؤثر فىَّ . هنا نقول لك : أخرج من قلبك ما يكون ضد القرآن ، واجعل القرآن أيضاً خارج قلبك ، ثم انظر فى الاثنين لترى ما الذى يستريح له قلبك ، لكن أن تكون مشحوناً ضد القرآن ثم تقول : إن القرآن لم يؤثر فيك ، فهذا يعنى أنك لم تنتبه إلى الفرق بين الفاعل والقابل ، ولم تنتبه إلى ما يسمى بالحيز ، ومدى قدرته على الاستيعاب .

فالزجاجة ذات الفوهة الضيقة لا تستقبل بداخلها الماء إن أغرقتها فيه ؛ لأن ضيق الفوهة لا يساعد الهواء الذى بداخلها على الخروج ، ولا يساعد الماء على الدخول ؛ لأن الماء لن يدخل إلا إذا خرج الهواء ؛ لذلك لا بد أن تكون فوهة الزجاجة واسعة تسمح بخروج الهواء ودخول الماء ، وعند ذلك سترى فقاقيع الهواء وهى تعلو الفوهة . وإذا كان الأمر كذلك فى الحسيات، فما بالك فى الأمور المعنوية وهى مثل الأمور الحسية .

إذن : فأخْرِج ما يناقض الحق من قَلْبك ، واجعل الباطل والحق خارجاً ، ثم استَقبل الاثنين. لا يمكن لك فى مثل هذه الحالة إلا أن تستقبل[1] الحق . ويصف سبحانه المصرين على الكفر :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة]

(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد] . فالقلب مغلق بغير الله ، وبغير كلامه فلم يتدبروا .

أى : أن ما هو خارج هذه القلوب لا يدخل إليها ، وما فى داخلها لايخرج منها .

إذن : ما دام الحق قد ختم على قلوبهم ؛ فلن تنفتح هذه القلوب للإيمان ، وستظل محتفظة بالكفر . فإذا كان من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يسمع القرآن ، ولا يأسره بيانه ؛ فذلك بسبب عجزهم عن النظر إلى ما فيه من معان وقيم [١] ؛ لأن الإنسان حينما يسمع القرآن ، وتكون نفسه صافية ليس فيها ما يشوش على ما فى القرآن من جاذبية وبيان يؤثر فيه وتطمئن إليه نفسه .

ولذلك حين قرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - القرآن ، وكان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته ؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم قرأ القرآن فاستقر فى قلبه [٢] .

إذن : لا بد أن تخرج ما فى ذهنك أولاً ؛ لتستقبل القرآن . فإذا ما أنزلت سورة يستقبلها المؤمن بصفاء [٣] . أما الكافرون والمنافقون ، فمنهم

---

(١) ومما يرويه ابن إسحاق من هذا فى السيرة النبوية أن بعض كفار قريش خرجوا ليلة ليستمعوا خفية إلى القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلى فى بيته ، وباتوا يستمعون له ، وكل منهم لا يعلم بالآخرين ، حتى إذا طلع الفجر انصرفوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا على عدم تكرار ذلك ، إلا أنهم عادوا للاستماع للقرآن عدة مرات . وسأل أحدهم (الأخنس بن شريق) أبا سفيان : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ووجَّه الأخنس نفس السؤال لأبى جهل فرد عليه : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً . [انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥ - ٣١٦] .

(٢) قصة إسلام عمر بن الخطاب أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ ، ٣٤٦) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٣) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ... (٢٣) ﴾ [الزمر] .

من يقول : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ وتعطينا الآية معنى أننا أمام فريقين : واحد يقرأ ، والثانى يسمع . ونفهم من سياق الآية أن الذى يتساءل مثل هذا السؤال إنما يوجهه لفريقين : أحدهما من ضعاف الإيمان ، أو حديثى الإسلام ، أو المنافقين ، وهؤلاء هم الذين لم يُخْرجوا الكفر أو بعضه من قلوبهم ، وقابلية بعضهم لاستقبال الإيمان لم تتأكد بعد ، ومنهم من قال فيهم الحق :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ...(١٦)﴾ [محمد]

ويقول :

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..(٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : الفاعل شيء ، والقابل شيء آخر . هم سمعوا القرآن بدليل أن الحق يقول :﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ وسياق الآية يوحى لنا أن هناك همساً من بعضهم : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ وهذا الهمس يأتى بلهجة المستهزىء ، وقائل الهمس يعنى أن سماعه للقرآن لم يزد شيئاً عنده ، ولم ينقص، وهو يهمس لمنافق مثله ،أو لضعيف الإيمان ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ فيرد الله على القضية النفسية ، ويعلمنا أنه سبحانه قد قسم الناس قسمين : قسم كافر أو منافق ، وهذا القسم يزيده القرآن كفراً[2] ، أما القسم المؤمن ؛ فاستقباله للقرآن يزيد من إيمانه[3] .

---

(١) وَقْر : ثقل فى السمع ، وقيل : هو الصمم .

(٢) وذلك فى قوله تعالى الآتى بعد : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة] .

(٣) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ [الأنفال] .

إذن : الفاعل شيء والقابل مختلف . ووقف العلماء أمام هذه الآية موقفاً فيه اختلاف بينهم ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ فقال بعضهم : إن الإيمان ينقص و يزيد ، وقال بعضهم : إن الإيمان لا ينقص ولا يزيد ، وقامت معركة بين علماء الكلام ، ولا تتسرب معركة بين عقلاء إلا إذا كانت جهة الفهم فى الأمر الذى يختلفون فيه منفكة ، فمنهم من يذهب فكره إلى ناحية ، ومنهم من يتجه فكره إلى ناحية أخرى[1] .

فالذين قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فلحظة أن يتألق الإيمان فى القلب ؛ يستقر فيه ، وهو الإيمان بالله، و أن لا إله إلا الله ولا معبود سواه ، وأن محمداً رسوله المبلغ عنه ؛ هذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمثال : هو قول الإمام على كرم الله وجهه : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً .

أما العلماء الذين قالوا بأن الإيمان يزيد أو ينقص ، فقد قصدوا بذلك تطبيق مستلزمات الإيمان من الآيات ، فكل آية تحتاج ممن يصدقها أن يكون مؤمناً بالله أولاً ، ثم ينفذ متطلبات الآية .

وكل المسلمين مؤمنون بالله ، ولكن فى جزئيات التطبيق نجد من يطبق عشرين جزئية وآخر يطبق ثلاثين ، أما أصل الإيمان الذى استقبل به الإنسان التكليف وهو التوحيد ، فلا يزيد أو ينقص . وهؤلاء المنافقون عندما قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ هل تداولوا ذلك سراً أم قالوه علناً ؟ لا بد أنهم قالوا ذلك سراً وفضحهم الحق سبحانه ، وكان يكفى أن يعلموا أن الله

(١) الذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص نظروا إلى مسمى الإيمان اللغوى أى التصديق والإقرار ، وهذا لا يحتمل نقصاناً . أما الآخرون فقد نظروا إلى أن الإيمان : تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح . فالعمل بالجوارح يزيد وينمى معانى الإيمان فى قلب العبد إن كانت فى طاعة ، أما إن كانت فى معصية فهى تنقصه بمعنى أنها تخدش ثباته فى القلب . انظر فى تفصيل هذا كتب علم الكلام والعقائد .

يخبر رسوله ﷺ بكل ما يكتمونه ، ولكنهم احترفوا اللجاجة [١] ؛ لذلك قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ .

ويرد الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ و " يستبشر " أى : يملأ السرور بشرته ، فترى البريق ، والفرحة ، والانبساط . وكلها من علامات الاستبشار ، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذى يفهم من الآية شيئاً جديداً ؛ يدخل على نفسه السرور ؛ ولذلك فهو يرتاح لنزول تكليفات إيمانية جديدة ، ليعظم ويزداد ثوابه ، وهو غير ذلك الذى يكره أن ينزل حكم جديد من الله .

هذا هو معنى "يستبشر" .

أما الآخرون فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

والرجس [٢] : هو الشىء المستقذر ، وتكون القذارة حسية ، ومرة تكون معنوية . فالميتة مثلاً قذارتها حسية ؛ لأنها ماتت ودمها فيها ، والدم - كما نعلم - له مجريان ؛ مجرى للدم قبل أن يكرر ، ومجرى آخر للدم بعد أن يكرر ، والدم قبل أن يكرر يمر على الرئة والكلى فتنقيه الرئة والكلى من

---

(١) اللجاجة : الجدال والمراء بغير حق . لسان العرب مادة (ل ج ج)

(٢) الرجس : القذر والنتن حسياً ومعنوياً ، ويطلق على ما يستقبح فى الشرع ، والرجس والرجز معناهما واحد ، ويطلق الرجس والرجز على العذاب قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة] يعنى : قذارة معنوية ونفسية وقوله : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : العذاب .

الأشياء الضارة التى تصل إليه نتيجة تفاعلات أعضاء الجسم المختلفة . وبعد أن تتم تنقيته عن طريق الرئتين والكلى يصير دماً صالحاً .

فإذا مات الحيوان بقى فيه دمه الصالح ودمه الفاسد ؛ لذلك نحن نذبح الحيوان قبل أن نأكله ، ونضحى بدمه الصالح مع الفاسد ؛ حتى لا يصيبنا الدم الفاسد بالأمراض ؛ ولذلك تعتبر الميتة رجساً . والخمر أيضاً نجاسة حسية ورجس . وهناك رجس معنوى ، ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ [1] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

إذن : فهناك رجس حسى ، ورجس معنوى ، ويطلق الرجس على الكفر أيضاً ، ومرة يطلق الرجس على همسات الشيطان ووسوسته .

وفى ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ .. (١١) ﴾ [الأنفال]

وهنا يقول الحق : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ ولأنهم يكفرون بالله وبآياته ؛ فهذا يزيدهم رجساً على رجسهم ويصبح كفرهم مركَّباً ، وهكذا نجد البشارة للمؤمنين ، أما الكافرون فلهم النذارة ؛ لأن كفرهم يزيد ، ويموتون على ذلك الكفر .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

(١) الأنصاب : كل ما عُبِدَ من دون الله من الأصنام والأوثان التى كان الكفار ينصبونها حول الكعبة لعبادتها والذبح عندها . أما الأزلام : فهى سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها " افعل " والبعض الآخر " لا تفعل " فإذا أراد رجلٌ السفر أو النكاح أتى سادن الكعبة فقال : أخرجْ لى زلماً ، فإن خرج بـ " افعل " فعل ، وإن كانت " لا تفعل " لم يفعل . انظر : لسان العرب مادة (ن ص ب) .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وقوله الحق : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ أى : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون فى كل عام مرة بالمصائب ومرة بالفضيحة ، فنجد رسول الله حين يراهم يخرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : « اخرج يا فلان فإنك منافق »[1] . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهنا يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله ﷺ يصفيهم كل عام مرة أو مرتين .

الأصل فى الفتنة أنها امتحان واختبار ، وهى ليست مذمومة فى ذاتها ، لكنها تذم بالنتيجة التى تأتى منها ، فالامتحان - أى امتحان - غير مذموم ، لكن المذموم هو أن يرسب الإنسان فى الامتحان . إذن : الابتلاء أو الفتنة[2] فى ذاتها ليست مذمومة ، إنما المذموم أن تأتى النتيجة على غير ما تشتهى ، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين رغم نفاقهم وكيدهم للمسلمين ،وكان يجب أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا عرقلة سير الإسلام ؛ لأنه منتصر بالله . وكان يجب أن يعتبروا ويتوبوا لينالوا خير الإسلام ،

(١) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . . " . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) . قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢) : " فيه عياض بن عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما " .

(٢) لكلمة الفتنة معان كثيرة فى اللغة ، تدور كلها حول الاختبار والإيقاع فى امتحان بعد امتحان ليميز الطيب من الخبيث ، وأصلها مأخوذ من فتنة الفضة والذهب أى : إذا أذبتهما بالنار لتعرف الردئ من الجيد ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] .

فخيره ممدود رغم أنوفهم ، والخسارة لن تكون على الإسلام ، وإنما الخسارة على من يكفر به .

ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أن سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله فى الكون ، بل إننا نجد أن النبى ﷺ فى بدء الرسالة كان مطلوباً منه أن يؤمن بأنه رسول . وكما تقول أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبى ﷺ أيضاً أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسبحانه جل شأنه ، الخالق الأكرم ، آمن بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ... ⦗١٨⦘ ﴾ [آل عمران]

فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن نؤمن بأنه سبحانه يزاول قيوميته وطلاقة قدرته بكلمة "كن" وهو عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً ، وكان لا بد أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحق ، بحيث إذا أمر أى كائن أمراً تسخيرياً فلا بد أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيب أن يأمر ؛ لذلك قال لنا : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، وحين يشهد محمد ﷺ أنه رسول الله فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لتهيب أن يبلغنا بالرسالة ، وبعد أن آمن ﷺ أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ⦗٢١٤⦘ ﴾ [الشعراء]

وظل رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، ويبلغ آيات الحق إلى أن جاءت آيات الدفاع عن دين الله ، وقال الحق :

إذن : فى البداية كان لا بد أن يؤمن أنه رسول ، وأن يبلغ الدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام وإن لم تتعد بالفعل ؛ حتى يأتى أتباعه من الصحابة وينساحوا بالإسلام فى كل بقاع الأرض ، ولذلك كانت الرمزية فى إرسال الكتب : كتاب لفلان وكتاب لفلان وكتاب لفلان [(١)] ؛ ليفهم العالم أن دعوة النبى ﷺ بالإيمان والإسلام دعوة متعدية ؛ لأنها خالفت دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان كل رسول إنما يعلم أن حدود دعوته هى أمته [(٢)] .

أما محمد ﷺ فقد كانت لرسالته مراحل : آمن بذاته أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريش ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك فى العالم ، وصارت أمة محمد ﷺ مؤتمنة على حمل الدعوة ونشرها فى أى مكان ومعها حجتها وهى القرآن.

وشاء الله أن يختم رسول الله الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذى يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أمية لا تعرف شيئاً [(٣)] ؛ حتى لا يقال عن

(١) بعث رسول الله ﷺ كتباً إلى ملوك الأرض من حول أرض الحجاز كقيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام مع جماعة من أصحابه ، ووجه كلاً منهم إلى وجهة ، وقال لهم : "إن الله بعثنى رحمة وكافة ، فأدوا عنى يرحمكم الله" أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/ ٦٠٧) عن ابن إسحاق .

(٢) وهذا مما خُص به رسول الله ﷺ ، فعن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ : "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأُعطيت الشفاعة" . متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

(٣) قال رب العزة فى هذا : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢)﴾ [الجمعة] .

الإسلام أنه مجرد وثبة حضارية ، وجاء لهم منهج غلب الحضارات المعاصرة له : فارس والروم فى وقت واحد .

إذن : فالمسألة كانت مسألة قبيلة ، يحكمهم واحد منهم هكذا ، دون تمرس بالنظم الاجتماعية ، ولم يعرفوا شيئاً قبل الإسلام ، بل هم أمة متبدية [1] لا شأن لها بالنظم السياسية أو الاقتصادية ، وطن الواحد منهم جمله وخيمته وبضعة أدوات تعينه على الحياة ، وتستقر كل جماعة فى أى مكان يظهر به العشب ويوجد به الماء ، وبعد أن تأكل الأغنام والأنعام العشب ، ينتقل العربى مع جماعته إلى مكان آخر ، بعد أن ينظر الواحد منهم إلى السماء ؛ ليعرف مسار الغمام وأين ستمطر السحب ، ثم ينساح هؤلاء بالدعوة بعد ذلك ، فلو كان لهم انتماء إلى وطن أو بيت أو مكان لصار الرحيل صعباً عليهم ، لكنهم كانوا متمرسين بالسياحة فى الأرض .

والآية التى نحن بصددها تكشف ضعف إيمان البعض ، ونفاق البعض ، فيقول الحق : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى : كان لا بد أن يتوبوا أو يتعظوا ويعلموا أن وقوفهم ضد الإسلام لم ولن يحجب الإسلام وأنهم سينسحقون ويضيعون ، فلماذا لا يتذكر كل منهم نفسه ، ويرى مصلحته فى الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) تبدَّى الرجل : أقام بالبادية . وقيل للبادية بادية لظهورها وبروزها . انظر : اللسان (ب د و) .

ومن قبل جاء قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا . . . (١٢٤) ﴾ [التوبة]

أى : أن هؤلاء المنافقين يشعرون بالضيق والحصار ، ويخافون أن يتكلموا ؛ لأنهم موجودون مع المسلمين ، ولكنهم لا يعدمون وسيلة للتعبير عن كفرهم ، فيغمز الواحد منهم بعينه ، أو يشير إشارة بيده ، فإذا ما كانوا قد تساءلوا من قبل بـ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ﴾ فقد كان هذا السؤال يتعلق بالتكاليف ، أما فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فليس فيها تكاليف جديدة .

لقد كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتكلموا بأفواههم ، فتكلموا بأعينهم ونظراتهم ، فكأن النظر نفسه كان فيه هذه الكلمة : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾، وهذا قد تراه من واحد يسمع خطبة الخطيب ، ولكنه يرى بها أشياء لا تعجبه ، فتجده يعبر بانفعالات وجهه عن عدم رضاه .

إذن : فهناك نظر ، وهناك كلام ، وهم قد تساءلوا : هل يراكم من أحد ؟ ومثلها مثل قولك : ما عندى من مال ؟ أى أنك لا تملك بداية ما يقال عنه مال، والقول الكريم أبلغ بالقطع من أن تقول: هل يراكم أحد.

إن قوله الحق :﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ دليل على أنهم فى خوف من أن يضبطهم أحد ، ومن بعد ذلك تجدهم يتسللون خارج دائرة الاستماع للقرآن أو للرسول ؛ لأنهم لا يطيقون الاستمرار فى الاستماع ؛ لأن منطق الحق يلجم الباطل ، والواحد منهم غير قادر على أن يؤمن بالحق وغير قادر على إعلان الكفر ؛ فينسحبون ، وينصرف كل واحد منهم ؛لذلك نجد أن بعضهم قد قال من قبل :

﴿ لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ [١] .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

وقد قالوا ذلك لأن الكافر أو المنافق قد تأتيه لحظة غفلة عن الباطل ، فيتسلل الإيمان إلى قلبه ، كما أن المؤمن قد تأتيه لحظة غفلة عن الحق ، لكنه يستغفر الله عنها .

وإذا ما أتت للمنافق أو الكافر لحظة غفلة عن كفره أو نفاقه ؛ فتأتيه هجمة الإيمان فيخافها ، فيقول لمن هم مثله : من الأفضل أن نقول لمن معنا لا تسمعوا هذا القرآن . لماذا ؟ حتى لا يصادف فترة غفلة عن النفاق ، فإذا صادف فترة غفلة عن النفاق فمن الممكن أن يدخل الإيمان القلب . ولذلك قالوا : ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلبوا من الأتباع أن يلغوا فيه ، أى : أن يشوشوا عليه :

﴿ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

إذن : لا غلبة لهم مطلقاً إلا بعدم الاستماع إلى القرآن ، أو أن يشوشوا عند سماع القرآن ؛ حتى لا ينفذ القرآن إلى القلوب [٢] .

وهنا يقول الحق سبحانه عن هؤلاء المنافقين:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ كانوا يقولون ذلك ؛ لأنهم كمنافقين سبق لهم إعلان الإسلام ، وكانوا يدعون أنهم متقدمون فى تطبيق أحكام الإيمان ، وكانوا يصرون على الوقوف أثناء الصلاة فى الصف الأول ؛ حتى يدفعوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، وكما

---

(١) الغوا فيه : الغطوا فيه ، أى : تكلّموا بصوت عال ، بكلام مبهم مختلط وجلبة وضجة ، حتى لا يفهم منه أحد شيئاً ، وتبقى قلوب أتباعهم فى غطاء عن قبول هدى الله .

(٢) وقد كان هذا دأب المشركين والكفار مع كل وحى يأتى من السماء ، مثل قوم نوح الذين قال عنهم : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح] .

يقـول المثل : يكاد المريب أن يقـول خـذونى . وينظر بعـضـهم إلى بعض متسائلين : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ لأنهم لا يطيقون الجلوس إلى الرسول ﷺ أو إلى المؤمنين . وينهى الحق الآية :

﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ وذلك نتيجة لانصرافهم نفسياً إلى النفاق ؛ فيساعدهم سبحانه على ذلك ، فما داموا لا يعرفون قيمة الإيمان ؛ فليذهبوا بعـيداً عنه ، فالحق لم يصرفـهم إلا باختيـارهم ، حتى لا يقول أحد : إن الله هو مصرف القلوب ، فما ذنبهم ؟ لا ، لقد انصرفوا هم بما خلقه الله فيهم من اختيار ، فصرف الله قلوبهم ، لماذا ؟ لأنهم ﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : لا يفهمون [١] .

والفهم أول مرحلة من مراحل الذات الإنسانية ، وهناك فرق بين الفهم والعـلم . فالفـهم يعـنى أنك تملك القدرة على تَفَهُّم ذاتيـة الأشيـاء بملكة فيك ، لكن العلم يعنى أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفـهم غيـرك ويعلمك . فـأنت قد تعلم جزئية لا من عندك وإنما من معلم لك . ولكن قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم ؟ ونقول : الذى لا يفـهم عليه أن يتقبل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفـهموا ولـم يتعلّموا ، وأصروا على عدم قبول العلم .

وبعد ذلك يأتى ختام سورة التوبة .

والسورة بدأت بالقطيعة :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ① ﴾ [التوبة]

(١) وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ⑤ ﴾ [الصف] عن قوم موسى .

ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بما يبرر هذه المشقات المتقدمة ، فبيَّن لنا : إياكم أن تنفضُّوا عن الرسول أو تغضبوه ؛ لأنه وإن جاء لكم ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إنك مثلاً إن رأيت عدواً ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك ؛ لأنه عدو . لكنك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك ؛ لتزيل عن ابنك خطراً . إذن : فهناك فارق بين جرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً .

إذن : لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود المشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذى أجرى المشاق عليك ، فإن كان ربك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ أوامر الرسول وطبقها ؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير .

وهنا يقول الحق :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ونلحظ هنا أن الحق قد نسب المجىء هنا للرسول ﷺ ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول ﷺ لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما

يؤهله للرسالة [1] ، وبمجرد أن نزل عليه الوحى امتلك اندفاعاً ذاتيـاً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسـول ﷺ المجىء ذاتيّاً ، ولكن هذا المجىء الذاتى ليس من عند محمد ﷺ فى البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة "جاء" .

وكلمـة ﴿ رَسُولٌ ﴾ تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمـة "جـاء" تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عـملاً ، فهـو ﷺ يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن : لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول ﷺ نظرتكم إلى الأمور الشاقة التى تتعبكم ، ولكن انظروا ممن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل فى إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالى نعمه عليكم حتى وأنتم فى معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يستر عليك [2] ، فلا تشكك ولا تتشكك . وعليك أن تأخذ التكاليف على أنها من حبيب فلا تقل : إنها مشقة . فأنت - ولله المثل الأعلى - تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعها معه قهراً عنه فى بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدى ابنك ليعطيه الطبيب حقنة من الدواء الذى جعله الله سبباً للشفاء .

---

(١) لأن فطرته هى الخلق العظيم وتأدب بأدب ربه وعاش منفعلاً بالإيمان سمواً ، وبالفعل تفكيراً فى الله ، وبالنفس سكينة إليه وبالجسد حركة له ، وبالقلب توحيداً وحباً ، فكان المجئ ذاتياً بمعية الله . يقول الحق : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾ [القلم] .

(٢) وهذا حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وهو أمر يحبه الله من عبده . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) . ويجب أن نفهم هنا أن الستر المقصود هنا ليس السكوت عن فجور من هو مقيم على معصية ، بل هو ستر معصية وقعت من إنسان وانقضت .

إذن : فلا تأخذ الأحوال بوارداتها عليك ، ولكن خذها بوارداتها ممن قدرها وقضاها ؛ وهو الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : أن الحق سبحانه لم يأت بإنسان غريب عنكم ، بل جاء بواحد منكم قادر على التفاهم معكم . ولقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ معان متعددة ، فمرة يكون معناها بـ"من جنسكم" ، مثلما قال الحق عن حواء :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... (١) ﴾ [النساء]

أى : خلق حواء من نفس جنس آدم البشرى ، فلا يقولن أحد : كيف بعث الله لنا بشراً رسولاً ؟ لأن الحق أراد الرسول من البشر رحمة بالناس ؛ ولذلك يؤكد ﷺ على بشريته أكثر من مرة وفى مواقع كثيرة [1] . والقرآن يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : فبشرية رسول الله ﷺ لا تؤخذ على الله ، ولكن تؤخذ لله ؛ لأنه أرسل واحداً من نفس الجنس ؛ ليكون قادراً على أن يتفاهم مع البشر ، وتكون الأسوة به سهلة . ولذلك قال سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ... (٦) ﴾ [فصلت] . وقد أكد الرسول ﷺ على هذا المعنى كثيراً جداً ، منها :

- فعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ « أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

- وعن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإنى اشترطت على ربى عز وجل ، أى عبد من المسلمين سببته أو شتمته ، أن يكون ذلك له زكاة وأجراً » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٢) وأحمد فى مسنده (٣ / ٣٩١ ، ٤٠٠) .

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

وقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من جنس العرب ، ولم يأت به من الروم أو من فارس ، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم . أو أن معنى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من نفس القبيلة التى تنتمون إليها معشر قريش .

أو أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعنى : أنكم تعلمون تاريخه ، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض ، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض ؛ ولأن هذا هو سلوكه ، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض . ولقد سميتموه الصادق الأمين ، والوفى ، وكلها مقدمات كانت توحى بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله . وإن كانت سلسلة أعماله معكم تثير فخركم ، فمجيئه كرسول إنما يرفع من ذكركم ، ويعلى من شأنكم . فأنتم أهل قريش ومكة ولكم السيادة فى البيت الحرام ، وقد جاء محمد ﷺ ؛ ليزيد من رقعة السيادة لكم ، فإذا كنتم قبل بعثته ﷺ سادة البيت ، فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾ [الزخرف]

فهو نبى للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش ، وكان يجب أن يفرحوا برسالته وأن يؤيدوها ، لكن الله لم يشأ ذلك ؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت السيادة على العرب ، وهذا جعل العرب يعملون لها حساباً ، وخافت منها كل قبائل العرب فى أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت لها مهابة هائلة ؛ لأن كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة ، وأثناء الحج تكون القبائل كلها فى

أرض قريش ؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض أى قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تقدر قبيلة أن تقف فى مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها .

وكل هذه المكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله الحرام ؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أبرهة من هدم البيت لتظل السيادة لقريش ، فلو انهدم البيت الحرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد أبرهة ، فمن أين تأتى السيادة لقريش ؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[1] (٥) ﴾ [الفيل]

وأتبعها بقوله :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فيأتى أمره فى الآية التالية :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد ﷺ رسولاً يدعو أولاً الصناديد ، والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية فى آذان سادة الجزيرة الذين تهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته فى آذان الصناديد ، والسادة ، وسفه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم جاءه الإذن بقتالهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة ؛ لتأتى منها النصرة .

---

(١) كعصف مأكول : له معنيان : أحدهما : أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبِّ وبقى هو لا حَبَّ فيه . والآخر : أنه أراد أنه جعلهم كورق النبات الذى أكلته البهائم ثم راثته . وكلاهما فى لسان العرب (مادة : ع ص ف) .

فلو أن النصرة جاءت من السادة لقالوا : جاءت نصرة الإسلام من قوم ألفوا السيادة ، ولما ظهر واحد منهم يقول :إنه رسول ؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الجزيرة العربية ، بل الدنيا كلها ، فتكون العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصرة من الضعيف ؛ حتى يفهم الجميع أن الإيمان بمحمد ﷺ هو السبب فى العصبية لمحمد .

هكذا نفهم معنى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أى : مرسل من الله و﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو مبلغ عن الله ، فلم يأت بشيء من عنده ، بل كل البلاغ الذى جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذى خلق لكم ما تنتفعون به من السموات والأرض . وسبحانه يقول :

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..(٨٧) ﴾ [الزخرف]

ويقول :

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

إذن : فالمخلوق هو الخليفة الإنسان ، وما خلقه الله فى الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقرون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذى جاء لكم من عنده بما يسعدكم ، وقد استقبلتم خيره قبل أن يأتى لكم بالتكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذى أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤتمن عليكم ، وهو ﷺ لم يأت من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم : افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم فى الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غباء الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فقال الحق :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

أى : إن كنتم تريدون مَلَكاً ، فالملك له صورة لا ترونها ، ولا بد أن نجعله ملكاً فى صورة بشر ؛ ليخاطبكم ، إذن : فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل ؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم فى العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة ؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنفع الأسوة ؛ لأنك مَلَك مطبوع على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

إذن : فمن رحمته سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أوالروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم ؛ لأنكم أنتم أول آذان تستقبل الدعوة ؛ فلا بد أن يأتى الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد ﷺ بالأنس والألفة ؛ لأنه من قريش التى لها بطون فى كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن : فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ، فاستصحبوا كل هذه الأشياء؛ لتردوا على أنفسكم: هو بشر وليس مَلَكاً. هو من العرب

وليس من العجم . هو من قبيلتكم التى نشأ بينكم فيها . هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فما كذب على البشر فى حق البشر . أفيكذب على البشر بحق الله ؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكى هذه الآية : ﴿ مِنْ أَنفَسِكُمْ ﴾ أى : أنه ﷺ بالمقياس البشرى هو من أقدركم وأحسنكم [١] . ولذلك حينما جاء الرسول ﷺ بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها بمعجزة ؟ هل انتظر أبو بكر أن يأتى له بمعجزة ؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلاً منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضى .

وحينما قال لخديجة : " يأتينى ويأتينى ويأتينى " وكانت ناضجة التكوين والفكر والعقل ، وعلمنا مما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ، مع أن المألوف أن يحب الإنسان الزواج ممن هى دونه فى العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زواج لمهمة أسمى مما نعرف ، ففى فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التى تتلقى من السماء ، وهذه فترة تحتاج إلى قلب أم ، ووعاء أم تحتضنه وتُربِّت عليه .

فلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مثلما قال ﷺ لخديجة لشكت فى قواه العقلية ، لكن خديجة العاقلة استعرضت القضية استعراضاً عقلياً بحتاً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذى يأتينى رئى [٢] من الجن . قالت

(١) لذلك اختصه الله بصفات حسية ومعنوية تحيله من أنفس خلق الله على الله ، يقول الحق : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) ﴾ [الأحزاب] .

(٢) رئى من الجن : تابع قد ألفه الإنسان من كثرة رؤيته له . وقد تكون من الرأى أى أنه صاحب رأيه . وانظر اللسان (مادة : رأى) .

له : " إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً "[١] .

إذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة ما يدل على صدقه بعد البعثة .

وكذلك أبو بكر رضى الله عنه ، حينما قالوا له : إن صاحبك يدعى أنه رسول . قال : أهو قالها ؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره[٢] .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ . وكلمة ﴿عَزِيزٌ﴾ أى : لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أى نادر الوجود . وقد تقول لإنسان : " قد تكون وزيراً " ؛ فيصمت رجاء ، لكن إن قلت له : " ستصبح رئيس وزراء " فيقول : هذه مسألة مستعصية وكبيرة علىَّ بعض الشيء .

إذن : فالعزة تأتى لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر ، أو يستحيل . والعزيز - هو الأمر الذى يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : "عز علىّ أن أصل إلى قمة الجبل" . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أى : شاق عليه أن يعنتكم بحكم ؛ فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتى لكم بالأحكام

---

(١) ذلك أن رسول الله ﷺ بعد ما جاءه جبريل فى غار حراء ، رجع إلى السيدة خديجة ترجف بوادره فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : «أى خديجة مالى» وأخبرها الخبر . فقال : لقد خشيت على نفسى . فقالت له : كلا . أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) ومسلم (١٦٠) عن عائشة . بوادره : اللحمة التى بين الكتف والعنق دلالة على شدة الفزع . زملونى : غطونى . تحمل الكَلَّ : أى : تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق . تقرى الضيف : أى : أنك كريم جواد تطعم الضيف . نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

(٢) عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال عن أبى بكر : « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ » (مرتين) إنى قلت : « يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٦١ ، ٤٦٤٠) وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٧٦) .

لكى تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم .

ولذلك قال النبى ﷺ « مثلى كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى فى النار يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار . هلم عن النار . فتغلبونى تقحمون فيها [1] » .

فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفُسكم أو من أنفَسكم أو يحبكم حبّاً يعز عليه أن تكونوا فى مشقة . إذن : فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأى فيها ، وذلك هو القانون التربوى الذى يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونواه : " افعل كذا " و" لا تفعل كذا" لا تذهب إلى المكان الفلانى ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .

كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت ؟ لقد صدرت من أبيك الذى تعرف حبه لك ، والذى يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب ؛ لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صعاليك يخرجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشر . وانظر إلى والدك الذى تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تتعب فهو أولى بأن تسمع كلامه .

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات فى الدنيا تتمثل فى التكاليف التى يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أخلد

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) بروايات متعددة ، عن أبى هريرة . ومعنى (آخذ بحُجُزكُم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل : موضع التكة .

فى الآخرة ؛ لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم فى الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهى ، لكن تعب الآخرة هو الذى يرهق حقاً ويتعب [١].

ولذلك يقول الحق فى تصوير هذه المسألة بقوله :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ [٢] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله فى الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هى التى يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التى تورد ثماراً.

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً : اخرج إلى الحقل ، واحمل السباخ فوق الحمار واحرث وارْوِ ؛ كل هذه مشقات ستجد لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحاً أو غير ذلك. ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هى المشكلة الأكبر، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لمغبة [٣] الضياع.

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً، ويرجوه الأب أن يجرى للابن جراحة تنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليعلم الابن أن

---

(١) ومن دقيق ما نقله ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٦/ ٤٦٤) عن أبى حامد الغزالى فى الفرق بين تهافت الفراش على النار وتهافت العصاة على الوقوع فى النار أنه قال : (التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت فى النار ، ولكن جهل الآدمى أشد من جهل الفراش لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها فى الحال ، والآدمى يبقى فى النار مدة طويلة أو أبداً) .

(٢) باخع نفسك : أى مكثر فى لومها وقهرها .

(٣) المغبة من كل شىء عاقبته وآخره .

هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك ، وعلى ذلك إذا أُمرت بتكليف شاق فانظر مَنْ أمرك ؟ أهو ممن تعز عليه وممن تحبه وممن يريد لك الخير ؟ إن كان الأمر كذلك ؛ فعليك أن تقبل ولا تسيء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء - مثلاً - فهو يرد عنك مصارف الشر ؛ لأنك إن اجتهدت في عملك ؛ فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشَرَّد وتجوع ، وسوف تدق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عاميّاً يلخص الحكمة التي تقول «من يأكل لقمتي فليسمع كلمتي» .

وهنا يقول الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ومعنى الحرص: أن يحوطكم بالرعاية ؛ حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر . ولذلك قلنا : إن الرسول ﷺ قد صوَّر هذه المسألة بقوله ﷺ : «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار - أي أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار - وأنتم تفلتون من يدي»[1] .

والحق يُسَرِّي عن رسوله ﷺ فيقول:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ... ۝٦﴾ [الكهف]

ويقول الحق أيضاً لرسوله:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء]

---

(١) هذه رواية عند مسلم من حديث جابر (٢٢٨٥) ، وقد سبق تخريجه من حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم .

فالرسول ﷺ يدعو الناس إلى إتقان العمل فى الدنيا ؛ ليصلوا إلى الجنة فى الآخرة ؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه ﷺ ويخشى أن يُرهَق إنسان واحد فى الآخرة ، ولذلك قال الحق:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء]

أى: إياك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمنوا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع ؛ وإنما يريد قلوباً تخشع.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

والرأفة والرحمة قد تلتقيان فى المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرّة ، وأموراً تجلب منافع . وسلب المضرّات - دائماً - مُقدّم على جلب المنافع ، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع ؛ نُقدم على العمل لدرء[1] ما يضر ، ثم ننجز العمل النافع.

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت فى حال متساوية ولا بد أن تدرأ عن نفسك الأمر الضار الذى يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذى يزيد من الارتقاء.

وحتى نقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأضرب هذا المثل الحسّى: هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يضربك به ، وآخر يريد أن يقذفك بتفاحة ، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر ؟ إنك تنشغل أولاً بدرء الضرر ، ثم تقبل على جلب المنفعة.

(١) الدرء : الدفع والإبعاد .

ومثال آخر : هب أنك ترى إنساناً يغرق أمامك فى البحر ، فهل توبخه ؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم العوم ؟ أم تنقذه أولاً وتدفع الأذى عنه ، ثم توبّخه وتعاقبه بعد ذلك جزاء إهماله ؟

إنك تنقذه أولاً ، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً ، وحتى إن عاقبته فهو يقبل منك العقاب أو النهر [1] ؛ لأن صنيعك أنقذه من الموت .

والحق يقول : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥) ﴾

[آل عمران]

إذن : فمراحل الفوز أن يُزْحزح الإنسان أولاً عن النار ، ففى هذا سلب للمضرَّة ، وجلب للمنفعة ، وإن ظل الإنسان فى موقعه لا هو فى الجنة ولا هو فى النار ؛ فهذا هين أيضاً . وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله .

وإذا كانت هذه هى بعض من خصال الرسول ﷺ : ﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، و﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ، و﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ ، و﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [2] ﴾ ، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول .

وقوله الحق : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ نرى فيه الوصف بـ «الرءوف» والرأفة هى سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة ، و«رحيم» هو الذى يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء .

وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين

(١) النهر : الزجر والإغضاب .
(٢) والآية الكريمة تعطى الوداد مع الله ومع رسوله ومع النفس والود عين القرب .

الوصفين [١] ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه :

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾ [النحل]

إذن: فالرسول ﷺ لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مستمدة من رأفة العلى الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مستمدة من رحمة العلى الأعلى. وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا أنه أعطى محمداً ﷺ بعضاً من الصفات التى عنده ، فكما يبلغكم المشقات فى التكاليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات فى الرأفة ، وترقية المنعمات بالرحمة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء]

ونعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أى: أن القرآن يسلب المضرة أولاً ، ثم يأتى لنا بالمنفعة بعد ذلك وهى الرحمة.

وقوله الحق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا القول خلاصته: إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله ﷺ ؛ فاعلموا ممن جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد ؛ لأن مشقات التكليف تنتهى بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يخطر على باله من أشياء ، يجده فوراً ؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم [٢].

---

(١) وقد أورد القرطبى فى هذا قول الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى محمد ﷺ فإنه قال : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾[التوبة] ، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)﴾[الحج] . انظر [تفسير القرطبى ٤/٣٢٢٨] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) فيه حميد بن عطاء الأعرج قاله الهيثمى فى المجمع (٤١٤/١٠) .

وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا في حياتهم ، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التي كانوا يقومون بها لأنفسهم ؛ فالثرى الذى كان يطهو طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً ؛ ليعد له طعامه ، والفلاح الذى كان يبني بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبنى له ، وكل الأعمال التى تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه، صار يستأجر من يقوم له بها، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش في رضا الله وبأسرار كلمة ﴿كُن﴾ .

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء فى هذه السورة بمشقات التكليف، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بأن الرسول ﷺ يتميز بكل المواصفات الموحية: من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التى تنجيهم من المشقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم.

فإن استمعوا إلى هذه الحيثيات وآمنوا ، فأهلاً بهم فى معسكر الإيمان، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحيثيات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن - يا رسول الله - أنك منصور بهم؛ لأنك منصور بالله ، فإن تولوا عنك [1] وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركنك الشديد [2] هو الله ، لذلك يختم الحق السورة بقوله:

---

(١) تولوا : أعرضوا ورفضوا الهدى . والتولى : من أسماء الأضداد أى : أنها تحمل المعنى وضده . قال تعالى : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. (٣٨)﴾ [محمد] أى : إن تعرضوا عن الإسلام . ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ .. (٥١)﴾[المائدة] أى : من يتبعهم وينصرهم .

(٢) الركن الشديد : القوى الذى لا يغلب من التجأ وركن إليه . ومنه قوله عز وجل عن لوط عليه السلام ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾ [هود] وعنه قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٣١١٦) من حديث أبى هريرة .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

ولم يقل الحق لرسوله : «إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله »[(١)] لا ، بل أعلنها للناس كافة ؛ حتى يسمعوها ، ولعل فى إعلانك لها ما يلفتهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ فلن تقولها إلا وعندك رصيد إيمانى بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك ؛ فسوف يعاقبه الله.

وحين تعلن: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ بعد أن كذبوك ، فالأحداث التى سوف تأتى بعد إعلانك ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ ستؤكد أن حسبك فى مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى - أنت تقول : «حسبى نصرة فلان»؛ لأنك تثق فى قدرة فلان هذا، ولكن القوة فى الحياة أغيار ، وحين تقول : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه فى هذا أو فى غيره.

وقل : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ برصيد ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ، و ﴿لاَ إِلَهَ﴾ نفى ، و ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إثبات ، إذن : ففى هذا القول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفى منطقى مع سلب ، وإثبات منطقى مع الإيجاب ، وهنا نفى أىِّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال[(٢)] شاعر باكستان الكبير ، فقال:

إنَّما التوحيدُ إيجابٌ وسلبٌ ... فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءُ

إيجاب فى ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ ، وسلب فى ﴿لاَ إِلَهَ﴾ ، فيهما للنفس عزم ومضاء ، أى: هما للنفس قطبا الكهرباء ، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله.

---

(١) الحسب : اسم بمعنى كاف . وحسبى الله ، أى : يكفينى الله .

(٢) محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامى جاهد بقلمه ونفسه فى سبيل الإسلام وتحرير بلاده ، وله آثار أدبية وشعرية تميل إلى الإسلام وتدرس فى المؤسسات العلمية ، وهو باكستانى المنشأ إسلامى الوطن ، عالمى الفكر - ترجم له فى مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوى شعلان .